

بينظير بهوتو..ضحية الغلو والتطرف الديني

عادل حبه



هناك الكثير من أوجه التشابه بين المصير المأساوي للسيدة أنديرا غاندي، رئيسة وزراء الهند السابقة، وعائلتها، وبين مصير بينظير بهوتو وعائلتها. فقد كانت غاندي أول امرأة تتقلد منصب رئاسة الوزراء في الهند ورئاسة حزب المؤتمر الهندي، وبهوتو أول امرأة مسلمة تتقلد نفس المنصب في باكستان إضافة إلى ترأسها لحزب الشعب الباكستاني العلماني التوجه. كما إن الأثنتين تعيشان حالة الأمومة، بما يعني ذلك من رقة وحنان وشعور بالمسؤولية تجاه فلذات أكبادهن، وهي مشاعر قد لا تتوفر بذاك القدر عند النصف الآخر من مكونات المجتمع الإنساني.

راحت كلتا السيدتان ضحية التطرف الديني، كما لحقت بهاتين الشخصيتين البارزتين فواجع عائلية تمثلت في إغتيال أولاد أنديرا غاندي، وإعدام ذو الفقار علي بهوتو والد بينظير على يد قطب الديكتاتورية العسكرية ضياء الحق، المسؤول عن ترويح التطرف الديني وإشاعته في باكستان وبأموال من بلدان الخليج النفطية. كما تم إغتيال شقيقي بينظير، وسجنها لمدة خمس سنوات مع زوجها في عهود الديكتاتورية. وتشترك السيدتان بموقف واحد إزاء التطرف الديني وإرهابه في كل من الهند والباكستان. جرت عدة محاولات لإغتيال بينظير، نجحت آخرها في تغييبها عن عالمنا الذي يهدده أخطر إرهاب ديني متمثلاً في تنظيم القاعدة. ويعود إستهداف هذه السيدة الشجاعة إلى كونها المبادرة إلى عملية اصلاح المدارس الدينية في باكستان وإبعادها عن نفوذ المتطرفين والوقوف بوجه إرهابهم، إضافة إلى كونها من المكافحين الثابتين على إرساء أسس

الديمقراطية والنظام الدستوري البرلماني في بلادها. ولعل كون بينظير امرأة، يشكل عاملاً إضافياً لتعاضم حقد المتطرفين وقوى التخلف واندفاعهم نحو اغتيالها بسبب نظرتهم الدونية إزاء المرأة.

وُلدت بينظير عام 1953 في إقليم السند وانخرط أجدادها وأبوها في العمل السياسي ضمن تيار ديمقراطي ليبرالي يدعو إلى إرساء نظام برلماني في البلاد. تزوج أبوها من سيدة كردية -إيرانية هي نصرت بهوتو، وكانت بينظير أولى ثمرة لهذا الزواج. أنهت دراستها الأولية في الباكستان ثم غادرت إلى الولايات المتحدة لتلقي العلوم السياسية في أشهر جامعاتها وهي هارفارد، 1969-1973، ثم كبريات الجامعات البريطانية وهي أوكسفورد لتدرس الفلسفة والإقتصاد والعلوم السياسية، 1973 - 1977. هذا التكوين العائلي والأكاديمي أضفى على الضحية مزيجاً من نبذ التعصب الديني والقومي والعنف مع النظر إلى البشر ليس كأخوة في الدين فحسب، بل أخوة في الخلق كما تقول حكمة الإمام علي بن أبي طالب.

عادت إلى بلادها بعد نجاح والدها في تولي زمام الأمور في البلاد عبر إنتخابات برلمانية. إن المنحى الديمقراطي للفقيد بهوتو وشروعه بإقامة علاقات سلمية مع الجارة الهند، إضافة إلى بوادر التحولات العاصفة التي بدأت تهب على المنطقة وخاصة أفغانستان، والتلملم الشعبي ضد إستبداد الشاه في إيران في السبعينيات، إستثارت قوى العسكر والردة والمتطرفين الدينيين مما دفعهم إلى تدبير إنقلاب عسكري يميني متطرف برداء ديني بقيادة الجنرال ضياء الحق. حظي الإنقلاب بدعم أمريكي، ضمن العمى السياسي أيام الحرب الباردة، وصيني وخليجي ومن شاه إيران من أجل تفادي أي تحول لصالح قوى الحداثة في المنطقة. وكان من أول تدابير الإنقلابيين هو إجراء محاكمة صورية لرئيس الوزراء المنتخب ذو الفقار علي بهوتو والحكم بإعدامه، مما فرض على السيدة الشابة الهجرة خارج البلاد.

عادت بينظير بهوتو بعد مقتل ضياء الحق في حادثة جوية، لتنتخب أول امرأة لمنصب رئاسة الوزراء في الباكستان عام 1988. ولكن سرعان ما تم إزاحتها من منصبها بتهم الفساد بعد 20 شهراً من الحكم. عادت عام 1993 لتشارك في الإنتخابات وتفوز بنفس المنصب، لتتم من جديد تنحيتها بعد إنقلاب عسكري وبنفس الحجج السابقة فتضطر، بعد أن أمضت أعواماً في السجن، إلى الهجرة خارج البلاد والإستقرار في إمارة دبي. وبعد أن أجبرت المؤسسة العسكرية الحاكمة بفعل الأزمة العميقة في المجتمع وتزايد الضغط الشعبي، وخوف الطغمة العسكرية من تهديدات المتطرفين الذين حولوا الباكستان إلى بؤرة للتطرف الديني والإرهاب في العالم، وبفعل الضغط الدولي، عادت بهوتو في 18 تشرين الأول عام 2007 إلى البلاد، وعاد زعماء سياسيون آخرون بعد العفو العام ليشاركوا في الإنتخابات البرلمانية. كان من المتوقع أن يعاد إنتخاب حزب الشعب الباكستاني وزعيمته من جديد لتولي مسؤولية الحكم وإنهاء مظاهر العسكرة في البلاد ثم الشروع بتصفية بؤر الإرهاب الدولي والوقوف بوجه من يحاول تحويل بلادها إلى ميدان لتدريب المجاميع الإرهابية.

من هذا السرد، تتضح لنا الدوافع وراء إصرار قوى التطرف ومن يساندها في التركيز بالأساس على هذه الشخصية المتميزة في الساحة السياسية الباكستانية. فالسيدة بهوتو هي الوحيدة التي تتزعم حركة سياسية ترفض تسييس الدين خلافاً لكل الحركات السياسية العاملة في الساحة. فمنذ أن تسلط ضياء الحق على السلطة أمر وبالإكراه بأن ترفع جميع الأحزاب السياسية لافتة "الدين"، وهذا مافرضه حزب الشعب الباكستاني. كما كان حزب الشعب ورئيسه بينظير بهوتو من أشد المناهضين للنشاطات الإرهابية في الباكستان، مدركين خطورة تحول البلاد إلى قاعدة لأخطر مظاهر الإرهاب الديني شراسة في العالم، والذي إستشرى في البلاد وتحول إلى شبكة "بيزنس" متشعب وخطير ومصدر إفساد لوسط إجتماعي غير قليل خاصة في المناطق القبلية المحرومة والمتخلفة. أمتدت أذرع هذا الأخطبوط وفساده في أكثر أجهزة الدولة حساسية وخاصة القوات المسلحة وجهاز المخابرات، كما تحول إلى قوة عسكرية فرضت سيطرتها على مناطق واسعة من الحدود مع أفغانستان وذلك من أجل توفير ملاذ لشبكة القاعدة الإرهابية ورموزها.

إن حادث إغتيال بينظير بهوتو لم يكن ميسراً بدون مشاركة المخابرات الباكستانية التي تشابكت مصالحها مع قوى التخلف والإستبداد والتطرف الديني في عروة فكرية وإقتصادية وثيقة. لايملك هذا التيار برنامجاً إقتصادياً وإجتماعياً للبناء وحل المشاكل المستعصية في مجتمعاتنا وخروجها من دائرة التخلف والفقير والركود بقدر ما يملك برنامجاً للقتل والهدم والفوضى وإثارة النزاعات الداخلية. ففي أفغانستان التي حكمها هذا التيار لم نر من حكمه سوى إعادة البلاد إلى الوراء لقرون دون أن يبني مدرسة أو مستشفى أو مرفقاً إقتصادياً أو يطور الزراعة بإستثناء المخدرات التي تجلب له موارد مالية يصرفها على خلاياه الإرهابية المنتشرة في بقاع شتى من عالمننا. ولم تقم فولول هذا التيار في الجزائر إلا بنشر حمامات الدم لتقتل الأبرياء بوحشية بالغة. ولا يحتاج العراقيون إلى دلائل كي يدركوا حجم ما قام به هذا التيار بمذاهبه المتعددة من قتل طال الألاف من العراقيين على الهوية الطائفية بيد المتطرفين، إلى جانب تدمير كل مرافق الدولة وتعطيل الحياة العامة بحجج طائفية بالية أو قومية ودينية متطرفة.

من الملاحظ أن هذا التيار العبثي المدمر الذي إمتد إلى كل بقاع المسلمين بغض النظر عن مذاهبهم قد ركز في كل فتاوى شيوخه على المرأة والتفنن في ذلها وإضطهادها وتجهيلها ووضعها على هامش الحياة مستنداً إلى أقوال محرفة منسوبة كذباً، ولا يعرف مدى مصداقيتها. فالمرأة بنظر هؤلاء لم تعد كالسيدة خديجة سيدة تجارة وأعمال، أو بلاغة وأدب وشعر وشجاعة كالكثير من النساء في تاريخنا، بل إنهم ينظرون إليها كعبد ذليل ومفرخة ومصدر يلبي غرائز حيوانية لهؤلاء المهوسين. وتتعرض المرأة العراقية الآن إلى أشد أنواع التنكيل على يد مختلف الواجهات المتطرفة الدينية. فقد كشف مسؤول امني في محافظة البصرة أخيراً أن عام 2007 شهد مقتل 133 امرأة في المحافظة مسجلاً زيادة عن العام 2006 الذي قتلت فيه 85 امرأة، وعزا قائد الشرطة تلك الظاهرة إلى دوافع دينية تقوم بها جهات متشددة.